مجلة جامعة الزيتونة الدولية للنشر العلمي
Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing
Issue N. 28/ ISSN:2958-8537
العدد الثامن والعشرون (28)
تاريخ 30 – 11 – 2024
(ص283 لـ ص295)

فلسفة النبوة عند الشيخ محمّد سعيد رمضان البوطي

The Philosophy of Prophecy According to Sheikh Muhammad Saeed Ramadan Al-Bouti

د. محمد الغريسي
باحث بمدرسة الدكتوراة-جامعة الزيتونة تونس
ghrissimohamed22160187@gmail.com

ملخّص:

تمثل شخصية محمّد سعيد رمضان البوطي أحد مفاخر الحضارة العربيّة في وقتنا المعاصر، وهذا ما يفسر انتشار ذكره في كلّ مكان فلا يكاد يوجد أحد إلاّ وعرف بسيرة حياته وسمع قبسا من أخباره ورسخ في ذاكرته بأن هذا الاسم هـ ولعالم شهيد أنار بعلمه وتواضعه عقولا... ولا ضير إذا أن نتصفّح بعض آثاره ونستجلي مكنونها سيما أثره الموسوم بكبرى اليقينيات الكونية ونميط اللّثام عن رؤيته لفلسفة النبوة. وتحقيقا لهذا الغرض سننظر في معنى النبوة والفرق بينها وبين الرّسالة وكذلك نوضّح الصفات الضرورية للأنبياء كما يراها البوطي دون أن نغفل عن أبعاد ختم النبوّة عنده.

Summary:

The personality of Muhammad Saeed Ramadan Al-Bouti represents one of the glories of Arab civilization in its contemporary time, and this explains the spread of his mention everywhere. There is hardly anyone who did not know about his biography, heard a portion of his news, and firmly established in his memory that this name is of a martyr scholar who enlightened minds with his knowledge and humility... There is no harm, then, in browsing through some of his works and clarifying their essence, especially his influence, which is characterized by the greatest universal certainties, and unveiling his vision of the philosophy of prophecy. To achieve this purpose, we will look at the meaning of prophecy and the difference between it and the message, as well as clarify the necessary qualities

of the prophets as Al-Bouti sees them, without neglecting the dimensions of the seal of prophecy according to him.

مقدّمة:

يجد المتتبّع لتاريخ النبوّات عامّة ونبوّة محمّد صلى الله عليه وسلّم خاصّة تنوّع الدلائل وتوسّعها؛ إذ كلّما كان النّاس أحوج إلى معرفة الشيء سهّل الله عليهم معرفة نفسه ودلائل نبوّة رسله، فهي دلائل كثيرة قطعيّة وإن كان من البشر من قد يضيق عليه ما وسّعه الله على من هداه.

وعند التأمّل والبحث في كلام الأئمّة المحقّقين نجد أنّهم قد تميّزوا بمنهج في الفهم والاستدلال على النبوّة ومردّ ذلك هوعصمة مصدر التلقّي المتمثّل في نصوص الوحي من قرآن وسنّة، وكذلك الإجماع وما يتبع ذلك من مصادر... ولعل التعرّف وطرق موضوع فلسفة النبوّة عند الشّيخ محمد سعيد رمضان البوطي كأحد أعلام الأمّة المعاصرين يصبّ في هذا المعنى، حيث أسهمت جهوده في بيان سبيل المؤمنين وتمييزهم عن السبل المنحرفة في هذا الباب من المقصّرين في طريق تثبيتها والاستدلال عليها والردّ على منكريها ومضانّ ذلك فيما تركه البوطي من تراث مقروء ومسموع ومرئيّ حيث شمل ما قدّمه للأمّة من كنوز معرفيّة شتى فنون العلم؛ فأقبل النّاس عليها إقبال الظمآن على مورد الماء العذب.

وتحقيقا لهذه الغاية، اتّبعت المنهج الاستقرائيّ التحليليّ وأفدت أيضا من المنهج الوصفيّ حيث رجعت إلى كتب البوطي التي تتناول المسائل الاعتقاديّة للوقوف على رؤيته للنبوّة، هذا فضلا عن الاستئناس ببعض المصادر والمراجع المهمّة التي تخدم موضوع البحث الذي تدور عناصره حول:

- في معنى النبوة والفرق بينها وبين الرّسالة.
- الصفات الضرورية للأنبياء
- أبعاد ختم النبوّة

في معنى النبوة والفرق بينها وبين الرّسالة.

النبيّ في لغة العرب مشتقّ من النّبأ وه والخبر، قال تعالى:ﱡ لخ لم لى لي **مج مح مخ** ّ.[1] ومن هنا سمّي النبيّ نبيّا لأنّه مخبر عن الله تعالى كلّ ما أراد من أمره ووحييه؛ قال تعالى:ﱡ **قم كج كح كخ كل كم** لج لح لخ لم له مج

1) النبأ1-2

محـ".[2] ومعنى النبوّة "وصـــول خبر من الله تعالى بطريق الوحي إلى من اختاره من عباده لتلقّي ذلك، فالكلمة إذن تفسير للعلاقة بين النبيّ والخالق جلّ جلاله".[3]

وقيل أيضا أنّ النبوّة مأخوذة من النّبوة والنباوة،[4] وهو وما ارتفع من الأرض ويقال لموضع مرتفع في الطّائف النباوة، ويقال للعلم من أعلام الأرض التي يهتدي بها: نبي. والمناســـبة ظاهرة بين المعنى الأوّل والثاني؛ ذلك أنّ النبيّ ذ ورفعة وقدر، وقد شرّف على سائر الخلق فه وأرفعهم قدرا. قال ابن تيميه بعد أن ذكر القولين: "والتحقيق أنّ هذا المعنى داخل في الأوّل فمن أنبأه الله وجعله منبئا عنهم فلا يكون إلاّ رفيع القدر عليّا وأمّا لفظ العل ووالرّفعة فلا يدلّ على خصـوص النبوّة... وقراءة الهمز قاطعة بأنه مهموز... واللّفظان مشـتركان في الاشـتقاق الأكبر فكلاهما فيه النّون والباء وفي هذه الهمزة وفي هذا الحرف المعتل لكن الهمزة أشرف فإنها أقوى... ويمكن أن تلين فتصير حرفا معتلاّ فيعبّروا عنه باللفظين بخلاف المعتل فإنه لا يجوز همزه... وإذا كان أصله الهمزة جاز تليين الهمزة".[5]

وفي الاصـطلاح الشـرعيّ النبوّة هي اصـطفاء الله تعالى عبدا من عباده بالوحي ولهذا المعنى الشـرعيّ مناسـبة ظاهرة مع كل معنيي النبوّة في اللّغة الخبر والارتفاع.

أمّا معنى الرســـول في اللّغة: "الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أُخذ من قولهم: جاءت الإبل رَسَـــلا أي متتابعة... ويقال: جاءت الإبل أرسالا؛ إذا جاء منها رَسَلٌ بعد رَسَلٍ... والرّسْل في غير هذا: اللّبن، يقال: كثُرَ الرَّسْل العام: أي اللبن... والرسـل بفتح الراء الذي فيه لين واسـترخاء... والطويل المسـترسـل... والتَّرَسُّـلُ من الرِّسْـل في الأمور والمنطق: كالتمهّل والتوقّر والتثبّت. وجمع الرّسالة: الرسائل، وجمع الرّسول: الرسل".[6]

أرسـل الله تعالى رسـلاً إلى كل أمةٍ من الأمم وقد ذكر الله تعالى أنهم متتابعون الرسـول يتبعه الرسـول وقد سمَّى الله تعالى مِن أولئك الرسـل مَن سمَّى وأخبر بقصـص بعضـهم دون الكثير منهم وقد اختلف أهل العلم في عدد الأنبياء والمرسلين وذلك بحسب ما ثبت عندهم من الأحاديث الوارد فيها ذِكر عددهم فمن حسَّنها أ وصححها فقد قال بمقتضاها ومن ضعَّفها فقد قال بأن العدد لا يُعرف إلا بالوحي فيُتوقف في إثبات العدد.

---

2) الحجر 49-50

3) البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونيّة، دار الفكر، سوريا، 1997، ص183.

4) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، لبنان، 1414هـ، 163/1.

5) ابن تيميه، النبوات، تحقيق عبدالعزيز بن صالح الطويان، دار أضواء السّلف، السعوديّة، ط1، 2000، 882/2-883.

6) ابن منظور، لسان العرب، 284/11.

يفرّق البوطي بين النبي والرسول، والذي يظهر لي من خلال التّعريف الذي ذكره للنبي والرسول حيث قال: إن النبي والرسول إنسان أوحى الله تعالى إليه بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام أن يبلغ عامة الناس أ وفئة منهم أمرا من قبل الله جل جلاله فإن أوحى الله عز وجلّ إليه بأمر ولم يأمره بتبليغه فه ونبي فحسب.[7]

ويظهر لي من خلال تعريف البوطي للنبيّ والرسول أنه فرّق بينهما ووافق رأي الجمهور في ذلك ودليل هذا التفريق قوله تعالى:ﱡ **ثم ثن ثى ثي فى في قى قي كا كل كم كى كي لم لى لي ما مم نر نز نم نن** ني ير **يز يم** ينّ.[8]

وقد جرت سنّة الله في خلقه أن يصطفي بعض عباده لمهمّة النبوّة والرّسالة كما قال:ﱡ **بم** بن بى بي تر **تز تم**تن تى تي **ثر ثز ثم** ّ ،[9] وهذا الاصطفاء والاختيار منّة إلهيّة منّ الله بها على الأنبياء والمرسلين فلم يصلوا إليها بكسب ولا جهد ولا كانت ثمرة لعمل أ ورياضة للنّفس قاموا بها .

وهؤلاء الصفوة يتولى الله سبحانه اختيارهم وه والعليم الخبير، ويجعل فيهم بقدرته ومشيئته الاستعداد للنبوة ليكونوا حقائق العقيدة المتحركة على الأرض. هذه النخبة يمكن أن يقال فيها: أنها ليست وليدة بيئتها ولا من صنع مجتمعها أنها جنس منفصل وجد كالغريب في بقعه نائية. وأنها لتحس بغربتها قبل أن يأتيها خبر السماء وتتجافى عن ضلال الناس كأن عالمها غير عالمهم وكأن قوة علوية تجتذبها إليها –تلمس آثارها وتشعر بتأثيرها فيما يجري لها ولكن تبقى محجوبة عن السر حتى يكشف الحجاب ويأتيها الوحي – فيتصل حبلها المقطوع بالعالم الذي كانت تستشعر وجوده ولا تدري كنهه تجد نفسها بعد ضلال وتعرف حقيقتها ومهمتها فيزول عنها الإحساس بالغربة وتستشعر نفسها وكيانها بقوة وتمكن وتأخذ في التلقي من الله تلقيا تلقائيا آنيا فلا تتردد ولا تتحرج ولا تجادل ولا تماري وإنما تستجيب للأمر وتتمثل للأمر للكلمة الإلهية آنيا كما ينبثق النور آنيا لا يدري أول شعاعه من أخره لسرعته.

وأما معنى كون النبوة اصطفاءً لا اكتسابا: فه وأن العبد لا يمكنه بالاجتهاد في الطاعة والترقي في مقامات العبودية أن ينال مرتبة النبوة، بل هي اجتباء واصطفاء واختيار من الله تعالى، وليس معنى ذلك أن الأنبياء لم يكن فيهم مزية عن غيرهم، أ وأنهم لم يكونوا أهلا للنبوة، فإنهم أفضل الخلق! وإنما معناه أنهم لم ينالوا هذه المرتبة باجتهادهم، وإنما نالوها بفضل الله عليهم واجتبائه لهم.

---

7) البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونيّة، 184.
8) الحج 52.
9) الحج 75

والنبوّة في نظر البوطي ليست إلّا وحيا من الله تعالى لمن شاء من عباده لينذر الناس يوم التلاقي ويذكرهم بما ذكّر به أسلافهم من قبل بما سيلاقونه من بعد الموت وما يترتب عليه من الحقوق لخالقهم وليس للنبوّة أي شأن بالكهانة أ والسحر أ والتّنجيم وليست مما يسعى إليه الناس بالحيلة والجهد والذي أراه في مسألة الفرق بين النبي والرسول أنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا بمعنى إذا انفرد ذكر أحدهما في النصّ فإنه يشمل معنى الآخر وحكمه وإذا اجتمع ذكرهما في النصّ كان لكلّ واحد منهما معنى غير الآخر، ونظائر ذلك كثيرة كالقضاء والقدر والإيمان والإسلام والفقير والمسكين وغير ذلك.

ومن هنا نفهم أنّ النبوّة بما هي فضل إلهيّ يهبه لمن يشاء من خلقه إلزاميّة غير كسبيّة حيث اقتضت حكمة الله إرسالهم في مراعاة لتطوّر العقل البشري وتهيئه لبلوغ الرشد فإذا كان لبعث النبي عند الله ميعاد معلوم فإن أحواله وأوضاعه في مختلف مراحل حياته جارية على تقدير وتدبير من الله العزيز الحكيم؛ يختار له الوسط الذي يكتنفه، والمؤثرات التي تحيط به، ويفاعل بين نفسه وبين ما وضعه فيه، فيخلق فيها ردود الفعل المناسبة للمستقبل القريب. وإن الله هـ والذي يصنع الأنبياء، وينشئهم النشأة المواتية للرسالة، إنه رب العالمين الذي تقبل مريم وه والذي صنع موسى على عينه، ووضعه في قصر فرعون آية كبرى من آيات التحدي لطغيان سادر، غير مرعو، لينشأ في حجور الجبابرة، ويخرج من عندهم أكبر ناقم، وأشد ساخط على الظلم وتعبيد الشعوب. ومن ثم لم يكن شيء في حياة محمد صلى الله عليه وسلم قبل المبعث إلا بتدبير الله الخالص وتهيئته وقد يبد وأن كلامنا هذا تحصيل حاصل فكل ما في الوجود إنما هـ وبتقديره عز وجل.

2-الصفات الضرورية للأنبياء

من الحقّ القول بأنّ البوطي أعطى في كتابه كبرى اليقينيات اهتماما أقل ما يوصف به أنه أوسعها بحثا فأثرى أصولها ومضامينها سواء بأفكاره ووجهات نظره أ وبآرائه وأدلته النقدية التي تضمّنها موقفه تجاه من أساء فهم النبوة وأيضا تجاه من ينكر النبوة أصلا. والذي يعنينا في هذا الإطار توضيح الصّفات الضروريّة الواجبة للأنبياء فنراه يقرّر ما نصّه: "وجملة ما يجب للأنبياء أربع صفات: الذكورة... العصمة... كمال العقل والضبط والعدالة".[10]

ويقرر البوطي أنّ النبوّة اصطفاء واجتباء من الله تعالى؛ فهي أثره علويّة إلهيّة وخيرة ربانيّة محكمة متقنة وهي لا تكون لأنثى بل لذكر يختاره الله لصفات غير راجعة لنفسه ولا لدرجة يبلغها بعلمه وكسبه، ويستدلّ على ذلك بالواقع التاريخيّ حيث تواترت الأخبار أنه لم يقع خلاف عند جمهور المسلمين في اشتراط هذه الصّفة.

[10]) البوطي، كبرى اليقينيات، ص ص202-204.

وفي هذا ردّ على من يقول بنبوّة النساء خصوصا حوّاء وسارّة وأم موسى وهاجر وآسيا بحجّة أن الله تعالى قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾.[11] وخاطب مريم بالقول: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.[12]

ويرد البوطي ذلك معتبرا أن الوحي المسند إلى أمّ موسى إنما هو بمعنى الإلهام وهو وقدر مشترك للنّاس كلّهم وقد أسند الله تعالى الوحي إلى النّحل أيضا؛ فقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.[13] أما الأمر المتجه إلى أم عيسى فقد يكون نداء من ملك مثل جبريل وهو وبمجرّده لا يعني النبوة ولا يستلزمها.

وتأسيسا على ما سبق نذّكر بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾[14] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.[15]

والظاهر أن الحكمة التي اقتضت أن يكون جميع الرسل من الرجال أنّ الرسالة تقتضي الاشتهار بالدّعوة ومخاطبة الرّجال والنّساء ومقابلة النّاس في السرّ والعلانيّة والتنقّل في فجاج الأرض وإعداد الجيوش وقيادتها كما تقتضي قوامة لرسول على من يتابعه. كما أن المرأة يطرأ عليها من الأمور الفيزيولوجية ما يعطلها عن كثير من الوظائف والمهمّات كالحيض والحمل والولادة وغيرها.

والنساء مأمورات بالقرار في البيوت والبعد عن الاختلاط بالرّجال ومهمّة النبوّة تتطلّب عكس هذه الأمور، وهكذا فجنس الرّجال أفضل لهذه المهمّة من جنس النّساء وذلك لا يمنع أن يكون في النساء من هو أفضل من كثير من الرّجال فكم من امرأة قانتة عابدة أفضل من ألف رجل مضيع متبع لهواه، إضافة إلى أن المرأة جعل الله تعالى من خصوصياتها أنها تحمل وتلد وترضع وتربي. ومن المستحيل أن تقوم بأعباء النبوة. ونحن واجدون البوطي في هذا السياق مخالفا للأشعري وغيره كالقرطبي وابن حزم.

---

[11]) القصص 7

12) مريم 17-19.

13) النحل 67.

14) يوسف 109.

15) الأنبياء 7.

كما عرّج البوطي عن ثاني أهمّ صفة وهي الأمانة؛ والأنبياء والرسل هم أمناء الله في أرضه على شرائعه ودينه لذلك كانت الأمانة واجبة لهم وأية ذلك قوله بنت شعيب عليه السلام في وصف موسى عليه السلام حين قالت: ﴿ئخ ئم ئه بجبح بخ بم به تج تح تخ تم﴾.[16]

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم مثالا للأمانة؛ فكان خير من أدّاها كما لقّب بالأمين قبل بعثه والأمانة من هذا الوجه من أخصّ الأوصاف التي اتّصف بها النبيّ صلى الله عليه وسلّم حتى لصقت به قبل بعثته فنعتته قريش بالصادق الأمين واشتهر بذلك عند أهل مكّة فاستودعوه أماناتهم والأمانة خصلة متعديّة بتعدّد مجالات الحياة الإنسانية في الجوارح والعبادة وحفظ الودائع والعمل والكلام وغيرها.

أما الصفات الثالثة التي يجب أن تتوفر في الأنبياء فهي العصمة[17] وهي من الصفات التي أكرمهم الله تعالى بها وميزهم بها عن سائر البشر فلم تكن لأحد إلاّ للأنبياء؛ حيث وهبهم الله هذه النعمة العظيمة وحفظهم من ارتكاب المعاصي والذنوب فلا يمكن أن تقع منهم معصية أ ومخالفة لأوامر الله عز وجل بخلاف سائر البشر.[18]

وحيث ثبت أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم هـ والمثل الأعلى في أمته الذي يجب الاقتداء به في أقواله وأفعاله وتقريراته وأخلاقه ومعاملاته بل هـ والأسوة الحسنة حيث وجب ألا يدخل في شيء من اعتقاداته وأقواله وأخلاقه معصية لله تعالى لأنّ الله تعالى أمر بالاقتداء بالرسل فإذا أمكن أن يفعل الرّسل بعد الرسالة المعاصي كان معنى الأمر باتخاذهم أسوة في حال المعصية جزء من أفعالهم أمر بالمعصية، وفي هذا تناقض ظاهر...

وبذلك يثبت أنّ الرّسل عليهم السّلام بعد نبوّتهم وبعد الأمر بالاقتداء بهم معصومون عن المعاصي[19] وأخطر هذه المعاصي هـ والكفر وهم معصومون عنه قبل النبوّة وبعدها بالإجماع،[20] ويوضح البوطي أيضا أن خطأ النبيّ في الاجتهاد لا يسمّى خطأ إلا بالنظر لعلاقته صلى الله عليه وسلم بربّه إلى النّاس فلا يسعهم إلاّ اتّباعه في كلا الحالين.[21]

هذا وقد اتفقت الأمّة على أن الرّسل معصومون في تحمل الرّسالة فلا يجوز لهم نسيان شيء ممّا أوحاه الله إليهم إلا شيء أراد الله أن ينسيه، قال تعالى:﴿لخ لم لى لي مج مح مخ مم مى مي نج نحنخ نم نى ني

16) القصص 26.
17) البوطي، كبرى اليقينيات، ص203.
18) الصابوني، محمد علي، النبوّة والأنبياء، مكتبة الغزالي، دمشق، ط3، 1985، ص52.
19) حنبكة، عبدالرحمان، العقيدة الإسلاميّة وأسسها، دار القلم، دمشق، 2013، ص382.
20) البوطي، كبرى اليقينيات، ص203.
21) م.ن

هج هم هى هي يج يح ﴾[22] وهم معصومون في التبليغ كذلك إذ الرسل لا يكتمون شيئا ممّا أوحاه إليهم ولا يبدلونه من تلقاه أنفسهم قال تعالى:﴿ ئي بر بز بم بن بى بي تر تز تم تن تى تي ثر ثز ثم ثن ثى ثي فى في قى قي كا كل كم كى كي لم ﴿.[23]

ومن العصمة ألا ينسى الأنبياء والرسل شيئا مما أوحاه الله تعالى إليهم وبذلك لا يضيع شيء من الوحي وعدم النسيان في التبليغ داخل في قوله تعالى:﴿ تم ته ثم جح ﴾، [24] وما يدل على عصمته في التبليغ قوله تعالى:﴿ نج نح نخ نم نى ني هج هم هى هي يج ﴾.[25] أما الأعراض البشرية فلا تتنافى مع العصمة فإبراهيم عليه السلام أوجس في نفسه خيفة عندما رأى ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام الذي قدّمه لهم ولم يكن يعلم أنهم ملائكة تشكّلوا في سورة البشر قال تعالى:﴿ طح ظم عج عم غج غم فج فح فخ فم قح قم كج كح كخ كل كم لج لح لخ ﴾.[26]

وكذلك غضب موسى غضبا شديدا أخذه برأس أخيه يجرّه إليه وألقى الألواح عندما وجدهم يعبدون العجل، قال تعالى:﴿ لخ لم لى لي مج مح مخ مم مى مي نج نح نخ نم نى ني هج هم هى هي يج يح يخ يم يى يي ذٰ رٰ ىٰ ٌّ ٍّ ُّ ِّ ّٰ ئر ئز ئم ئن ئى ئي بر ﴾.[27]

ومن ذلك أيضا نسيان آدم عليه السلام وجحوده هذا ثابت كما في سنن الترمذي من حديث أبي هريره رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة، فلما قضي عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟

---

22) البقرة 106.
23) المائدة 67.
24) الأعلى 6.
25) النجم 3-4.
26) هود 70.
27) الأعراف 150.

قال: أولم تعطها ابنك داود قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته ".[28]

وعلى هذا الأساس فالأنبياء والرسل يجتهدون فيما يعرض عليهم من وقائع ويحكمون وفق ما يبد ولهم فهم لا يعلمون الغيب وقد يخطئون في إصابة الحقّ ومن ذلك عدم إصابة النبي داوود عليه السلام في الحكم وتوفيق الله لابنه سليمان عليه السّلام في تلك المسألة.[29]

هذا وقد ذهب أكثر علماء الإسلام إلى أنّ الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر وإلى هذا الرأي ذهب ابن تيميه حينما قال: "إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هـ وقول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف حتى إنه قول أكثر أهل الكلام كما ذكر " أب والحسن الآمدي " أن هذا قول أكثر الأشعرية وه وأيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء بل هـ ولم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول ولم ينقل عنهم ما يوافق القول".[30] وه والسياق الذي قرره البوطي من أنّ الصغائر التي لا تخل وبالمروءة ولا تستلزم خسة فهي محل خلاف وبحث عند العلماء.

أمّا الصفة الرابعة فهي كمال العقل والضبط والعدالة وفي نظر البوطي أنه ل وأمكن أن يكون الرسول ناقصا في عقله أ وضبطه أ وعدالته مع تكليفه بتبليغ الرسالة المنوطة به لكان ذلك متنافيا مع أصل الرسالة وه ومن العبث المحال على الله عز وجلّ.

وقد اصطفى الله تعالى محمّدا صلّى الله عليه وسلّم وفضّله على العالمين وفطره على صفات عظيمة حتى أبهرت سيرته القريب والبعيد ومن أمثلة ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان أرجح النّاس عقلا وأعظمهم خلقا ومعلوما لكلّ ذي لبّ أنه لم يتوفّر العقل في إنسان كما توافر في النبي صلى الله عليه وسلم من مظاهر وفور عقله وكمال حكمته طريقة حلّه للنزاعات والخلافات بل استطاع برجاحة عقله أن يوقف حروبا طاحنة وقصة الحجر الأسود شاهدة على ذلك.

أمّا بعد البعثة فتجلت رجاحة عقله في معاشرته وتربيته لأصحابه وأهله وأولاده وسياسته مع رعيّته وحسن تربيته وتدبيره في هجرته وغزواته وموقفه من الفتنة التي كادت أن تقع بين الأوس والخزرج بسبب تأليب اليهود في المدينة وبين المهاجرين والأنصار أثناء غزوة بني المصطلق والصلح وفي معاملة الأصدقاء والأعداء وكذلك الحال حينما اقنع ذلك الشابّ الذي جاءه يستأذنه في الزّنا إلى غير ذلك ممّا لا يحصيه العدّ. في سيرته العطرة الملآى بالأحداث الدالة على كمال ورجاحة عقل النبي صلى الله عليه وسلم وهكذا فقد نشأ النبي صلى الله عليه وسلم متحليّا بكل

---

[28]) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف، حديث رقم: 3076.

29) الأشقر، عمر، الرسل والرسالات، دار النفائس، الكويت، ط4، 1989، ص99.

30) ابن تيميه، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمان بن محمّد، مجمع الملك فهد، السعوديّة، 1995، 319/4.

خلق كريم مبتعداً عن كل وصف ذميم، فكل خلق محمود يليق بالإنسان فله منه القسط الأكبر والحظ الأوفر وكل وصف مذموم فه وأسلم الناس منه، وأبعدهم عنه، شهد له بذلك العد ووالصديق.

وإذا كان من الطبيعي أن يحب ويثني التابعون على متبوعهم، فالعجيب هـ وثناء الأعداء والمخالفين، فلم يشـــهد بصدق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحسن أخلاقه المؤمنون به فقط، بل شهد له الكثير من المنصفين من أعدائه الذين لم يؤمنوا به، فعندما اطلعوا على سيرته صلى الله عليه وسلم الصحيحة لم يجدوا فيه مغمزاً لقادح، ولا مطعناً لجارح فلم يملكوا إلا الاعتراف له بالفضل وحسن الخلق والسيادة، وهذه هي الحقيقة التي أبصرتها عقول منصفة . قديما وحديثا . وإن كانت مخالفة له.

3–أبعاد ختم النبوّة

إنَّ الخلق بحاجة الرسل ليبلّغوهم ما يُحبّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء عليهم السلام، فكيف تكون الحال ل ولم يُرسل الله تعالى رسلاً مبشرين ومنذرين، فالرسـل بُعثوا يُهذّبون العباد، ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ويُحرّرونهم من رقّ عبودية المخلوق، إلى حرية عبادة رب الأرباب الذي أوجدهم من العدم، وســيفنيهم بعد الوجود، ويبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إما أشقياء، وإما سعداء.

ول وتُرك الناس هملاً دون إنذار وتخويف، لعاشـوا عيشـة ضـنكاً، في جاهلية جهلاء، وضـلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسـدة، وأصـبحت الحياة مجتمعُ غاب، القويّ فيهم يأكل الضـعيف، والشـريف فيهم يذلّ الوضيع، وهكذا.. فاقتضت حكمته جلّ وعلا ألا يخلق عباده سُدى، ولا يتركهم هملاً فلا يستطيع الإنسان أن يعرف حقيقة العبادة؛ من فعل ما يُحبّه الله ويرضـاه، وترك ما يكرهه الله ويأباه، إلا عن طريق الرسـل الذين اصطفاهم الله من خلقه، وفضّلهم على العالمين، وجعلهم مبرّئين من كلّ عيب مشين، وكلّ خلق معيب، وأيّدهم بالمعجزات والحجج والبراهين، وأنزل عليهم البيّنات والهدى، وعرّفهم به.

تقترن الدّعوة إلى الله تعالى في أيّة رسـالة سماوية بالدعوة إلى الإيمان بالملائكة والرسـل والكتب السـماويّة واليوم الآخر. ونحن واجدون في أحاديث الرّسـول صـلّى الله عليه وسـلّم ما يعبّر عن ذلك؛ فحدّد النبي عليه الصّـلاة والسـلام الإيمان بقوله: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والقدر خيره وشرّه. وقد صـادقت على هذا كتب الأنبياء والرّسـل جميعا ثمّ من فضـل الله تعالى على رسـوله أن يجري على أيديهم المعجزات تأييدا لهم وتصديقا لدعواهم فيما ادّعوا وتحديّا لأقوامهم وتعزيزا للمكذّبين منهم عن معارضتها، ثم إنّ النبوّة اصطفاء من الله يخصّ بها من يشاء من عباده من حيث أنّه تعالى خالق قادر عليم.

على أن هذا الاصطفاء يوجب بذاته ضربا من الاتّصال على نح وخاصّ فيما بين الله تعالى والنبيّ المختار إذ بهذا الاتصال يعلم النبيّ بنبوته ويتلقّى من الله رسالته التي يكلّفه بحملها والدّعوة إليها. ويمثل الوحي هنا حلقة الاتّصال

بين الله والنبيّ فه وبمثابة الرابطة التي تربط بين السّماء والأرض ومن ثمّ كان الوحي دعامة أساسيّة لكلّ دين سماويّ فمنهما صدر وبّما لهما من إعجاز فاز وعلى تعاليمهما تأسست قواعده وأركانه.[31]

وكون الأنبياء يبعثون إلى أقوامهم خاصـــة لا يعني ذلك عدم جواز دعوة الرســـول غير قومه –من غير أن يكون مكلفاً بذلك–أ وأن يدخل في دينه من ليس من قومه، وعلى هذا يُحمل ما ذكر من دعوة بعض الرســـل وأتباعهم لغير قومه، وإيمان من آمن بهم من غير أقوامهم، ولذلك كانت دعوة الحواريين وغيرهم من أصـــحاب الرســـل وأتباعهم لأقوامهم ولغيرهم، كما جاء ذلك الرجل من أقصى المدينة ينصح أهلها باتباع رسل الله، كما قص الله علينا في سورة يس. والحاصل أن رسل الله جميعا كانوا يكلفون بتبليغ الرسالة، والدعوة لأقوامهم خاصة، ولا مانع من أن يدع والرســول أ ويدع وأصــحابه وأتباعه غير أقوامهم، وأن رســلهم هم أصــحابهم... وأن الذي بعث إلى الناس كافة، وكلف أتباعه بالدعوة إلى شريعته إنما ه وخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم؛ فه والذي أرسله الله للعالمين، من الإنس والجن، عربهم وعجمهم.

اعترف الإسلام بنبوّة جميع الأنبياء السّابقين على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ويعتبر الإقرار بهم وبنبوة محمّد صلى الله عليه وسلم ركنا أساسيّا من أركان العقيدة الإسلاميّة أصلا من أصول الإيمان بحيث من ينكر هذا الأصل أ ويشكّك فيه فقد خلع عنه ربقة الإسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحســـنه وأجمله، إلا موضـــع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ".[32]

وإذا كانت نبوّة محمّد صلى الله عليه وسلم قد سبقت بنبوّات غابرة وثنيّة وسماوية تختلف في أنواعها ومصادرها ونظرة النّاس إلهيا فإن هذه النبوّة الإســـلاميّة جاءت مصـــحّحة متمّمة لكل ما تقدّمها من فكرة عن النبوّة، كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصحّحة ومتمّمة لكلّ ما تقدّم من عقائد بني الإنسان في الإله؛[33] حيث بعث الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم نبيّا ورسولا من العرب إليهم وإلى النّاس كافّة قال تعالى:﴿أُبي **بى ئج ئح ئخ ئم ئه** بج بح بخ بم به تج﴾.[34] ويؤيده الله تعالى بالوحي ويجري على يديه ولسانه ضروب من المعجزات والآيات البيّنات تدعم نبوّته وأحقيّة رســـالته وصـــدق دعواه، وكان القرآن الكريم متوّجا لهذه المعجزات؛ معجز في ذاته

31) مدكور، إبراهيم، في الفلسفة الإسلاميّة: منهج وتطبيقه، دار المعارف، مصر، ط2، 1968، 69/1.

32) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيّين، حديث رقم 3535.

33) العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القاهرة، 1957، ص57.

34) سبأ 28

ومعجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وإذا كانت نبوّة محمّد صلى الله عليه وسلّم ورسالته قد حظيت منذ ظهورها بالمؤمنين والصادقين فقد منّيت بالمعارضين والمكذبين شأنها في هذا شأن كلّ رسالة سماويّة.[35]

ويوضّح البوطي أنّ من مقتضيات الإيمان بيان أن التصور المألوف والشامل لمفهوم ختم النبوة يتضح في إتمام الدين وكليته، والتصريح بختم النبوة ما هو: إلا ردّ كل وحي يأتي بعد الرّسول، والذي يقتضيه بختم النبيين أ والنبوّة ه والقطع بأنّه لن يأتي نبيّ بعد محمّد عليه الصّلاة والسّلام: "فإذا آمنت بالقرآن أنّه كلام الله عزّ وجلّ اقتضى... أن تعرف أنّ أوّل نبيّ أرسله الله تعالى مؤيّدا بالوحي والأحكام ه وآدم أب والبشر عليه الصّلاة والسّلام وآخر الأنبياء ه ومحمّد صلّى الله عليه وسلّم فلا نبيّ بعده"،[36] وما يدلّ على ذلك من نصوص الوحي قوله تعالى:ﱡ ضخ ضم طح ظم عج عم غج غم فج فح فخ فمقح قم كج كح كخ كل كمﱠ.[37]

ومن هنا نفهم أنّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ومعجزة القرآن خاتمة بحكم كونها كتاباً، من مقولة الكلام والبيان والعلم والثّقافة معجزة خالدة، وخصوصا في وقتنا المعاصر تتجلّى وجوه إعجاز معجزة الكتاب تدريجيّا، ففي وقتنا المعاصر ظهرت لأهل زماننا عجائب عن القرآن لم تكن بالأمس جليّة ولم يكن بالإمكان ظهورها بالأمس، ويدرك المفكرون معجزة الكتاب أفضل من النّاس العوام، وإنّ معجزة القرآن لتحتوي على الخصائص المناسبة لدور الختامية للرسول والرسالة، بمعنى أنه لا نبيّ بعده وأنّ شريعته الغرّاء خالدة وباقية إلى يوم القيامة.

ونستفيد من خاتميّة نبوته محمّد صلى الله عليه وسلّم أن الإسلام ناسخ لجميع الشرائع التي سبقته، فلا مكان لتلك الشّرائع بعد مجيء الشريعة الإسلاميّة ،كما لا وجود لشريعة سماوية في المستقبل، وادعاء أي شريعة بعد الشريعة الإسلامية أمر مرفوض في العالم الإسلامي، بالإضافة أنّ مسألة الختاميّة طرحت في القرآن والأحاديث النبويّة بشكل جليّ لا مزيد عنه.[38]

35) البوطي، كبرى اليقينيات الكونيّة، ص ص186-189

36) مصدر نفسه، ص 196.

37) الأحزاب 40.

38) راجع: المودودي، أب والأعلى، ختم النبوة، ترجمة خليل أحمد الحامدي، مكتبة الرّشد، السعوديّة، 1983.

الهوامش:

الأشقر، عمر، الرسل والرسالات، دار النفائس، الكويت، ط4، 1989.

البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونيّة، دار الفكر، سوريا، 1997.

البخاري، الجامع المسند الصحيح، تحقيق محمد زهير ناصر، دار طوق النجاة، لبنان، ط1، 1422هـ.

ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، لبنان، 1414هـ.

الترمذي، سنن الترمذي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1975.

ابن تيميه، النبوات، تحقيق عبدالعزيز بن صالح الطويان، دار أضواء السّلف، السعوديّة، ط1، 2000.

ابن تيميه، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمان بن محمّد، مجمع الملك فهد، السعوديّة، 1995.

حنبكة، عبدالرحمان، العقيدة الإسلاميّة وأسسها، دار القلم، دمشق، 2013.

الصابوني، محمد علي، النبوّة والأنبياء، مكتبة الغزالي، دمشق، ط3، 1985.

مدكور، إبراهيم، في الفلسفة الإسلاميّة: منهج وتطبيقه، دار المعارف، مصر، ط2، 1968.

العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القاهرة، 1957.

المودودي، أب والأعلى، ختم النبوة، ترجمة خليل أحمد الحامدي، مكتبة الرّشد، السعوديّة، 1983.